صبـــاح وشتـــاء

سيد البحراوي

www.alkottob.com

الفهرس

١- صباح..شتاء	٥
٢- نظر	٧
٣-أبى	٨
٤- أمى	٠١
٥- أمى قصة حب	٣١
٦- حقنة	٥١
٧- احتفال العيد العاشر	٦١
٨- طقس العزاء	٨١
٩- مقبرة	٢٢
٠١- افتقاد	٤٢
١١- نهايات	٥٢
٢١- آخر يوم فى رمضان	٧٢
٣١- هبة	٠٣
٤١- أحمد	٣٣
٥١- طفولة	٧٣
- وش القهوة	١٤
٧١- عمى	٤٤

www.alkottob.com

٨١- تحايل	٧٤
٩١- ألوان	٩٤
٠٢- ذرة مشوية	١٥
١٢- ثعبان	٣٥
٢٢- أزواج وأفراد	٦٥
٢٢- قصة حب (١)	٧٥
٣٢- قصة حب (٢)	٩٥
٤٢- قصة حب (٣)	١٦
٥٢- قصة حب (٤)	٣٦
٦٢- قصة حب (٥)	٥٦
٧٢- قصة حب (٦)	٧٦
٨٢- قصة حب (٧)	٨٦
٩٢- قصة حب (٨)	٩٦
٠٣- قلم	٠٧
١٣- عرس	١٧
٢٣- قبلة	٣٧
٣٣- صخرة	٥٧
٤٣- الكاميرا المغلقة	٨٧

www.alkottob.com

صباح... وشتاء

انتهيت- وأبى- من تناول طعام الإفطار. أكلت بيضة وقطعة من الجبن وبنينة، وأكل هو بنينة وقطعة من الجبن. ناولته كوب الماء. وقبل أن يشرب سأل أين الحبوب فأحضرتها له. وقبل أن يفضها ليتناول واحدة قال: لولا هذه الحبوب كنت ضعت..االله أعلم أنها أفادتنى فائدة كبرى فى كل شئ.

كان الصباح المبكر. وكان الجو حاراً. نظرت أمامى متأملاً الشجرة أمام المنزل فى الناحية الآخرى من الطريق- على الترعة- تطل من الباب المفتوح خضراء بدرجات قاتمة فى الجزء الأعلى ثم فاتحة فى الجزء الأسفل. فكرت أنها تكون دائماً خضراء، ولا يسقط ورقها أبداً. وأمعنت التفكير محاولاً أن أتذكر إن كان ورقها يسقط فى الشتاء ... ولم أستطع التذكر فقررت أن أسأله.

قلت الشجرة التى أمامنا شجرة كافور أليس كذلك ؟ قال لا.. توت، ثم قال: هل كبرت؟

www.alkottob.com

قلت نعم كبرت جداً. فقال ليتها كانت التى أمامنا.. كانت قد ظللت علينا ومنعت الشمس والتراب.

أمنت على كلامه وصمت.. وكنت ما أزال مترددا فى سؤاله خشية أن يفتضح جهلى.. وأخيراً سألته: طبعاً ورقها يقع فى الشتاء! .. قال طبعاً.

www.alkottob.com

نظـــــر

عندما فتحت الباب لأحضر نظارتى، انتبه وسأل من؟ قلت أنا. قال: هل نسيت شيئاً؟ قلت نعم نسيت النظارة.

كان قد سمعنى أحرك زر الكهرباء لأعلى، ثم لأسفل. قال: أغلق الباب خلفك. خرجت من الحجرة وكأنى انتبهت لأول مرة أنه يتألم. ها هو يقظ فى الظلام، ظلام دائم منذ سبع سنوات. فكرت أن معاناة الإنسان لا يمكن أن يعيشها غيره، بل حتى لا يدركها سواه.

www.alkottob.com

أبـــى

كان لابد لأبى أن يموت فى غيبتى. كان هذا يقينه طوال الأربعين سنة الأخيرة من حياته، وكذلك من حوله من البشر لأنه رفض أن يذهب إلى أبيه لحظة احتضاره، فمات دون أن يرضى عنه. ولقد حاولت منذ أدركت هذا الهاجس أن أخلف النبوءة، فرفضت أسفاراً كثيرة فى الخارج، وداومت على الحضور إلى البلدة بانتظام مطلق، كل أسبوع أو كل أسبوعين، حسب الظروف، وحينما أصبح ممكناً أن تتعامل قريتنا مع التليفون، أدخلت واحداً إلى منزلنا، ومع كل ذلك فقد وقعت النبوءة بإرادتى وعلمى ويقينى. فحين تركته لأذهب إلى عملى(ربما كان هاما، ولكنى على كل حال لم أتمه بسبب الوفاة) فى هذا الوقت، كان قد توقف عن تناول الطعام أو الشراب، وكان واضحاً أن الموت قادم يقينا، وإن لم يكن معلوماً متى بالضبط. لذلك سافرت. وحين أبلغت أنه فى حالة متأخرة، سارعت بالحضور، فوجدته قد مات. وكان -كما أكدوا- يسأل إذا كنت قد حضرت حتى لفظ أنفاسه

www.alkottob.com

الأخيرة بهدوء وبطء. [ولست أدرى-منذ ذلك الحين- إن كان قد مات راضياً عنى أم لا؟.]

www.alkottob.com

أمي

رغم أن قريتنا كانت من القرى القليلة التى عرفت التعليم الابتدائى مبكرا، فإن أبى وأمى لم يكونا يعرفان القراءة والكتابة. وفى حين أن أبى يجيد الحساب وقراءة أرقام السبيه، أى الميزان، فإن أمى لم تكن تعرف أى منهما، مما كان سببًا دائماً لهجومه وتهكمه عليها.

حين فقد أبى بصره، وكان لديهما بقايا تجارة، اكتشفنا فى أمى قدرات كانت مختفية وظهرت فجأة. فقد نجحنا فى تعليمها كيف تقرأ السبيه دون أن تعرف الأرقام المكتوبة، وذلك بأن تعد الخطوط المتتابعة المنحوتة حتى تصل إلى الموقع الذى وقفت عنده السنجه، أى ثقالة الميزان.

وحين أصبح لدينا تليفون ، كانت حريصة على أن تتعلم كيف تستخدمه- ما لم تستطع أختى التى تعلمت فى المدرسة لعدة سنوات تعلمه- تعلمت كيف تطلبنى، وكيف تطلب أختى.

www.alkottob.com

لكى تطلبنى كان الأمر سـهلاً أن تـدير الـرقم الأول (واحد) والرقم الأخير (صفر) كى تتصل بالسنترال، وموظفه فى الغالب كان يحفظ رقمى بالقاهرة. لكن فى بعض الأحيان كانت تقوم الخناقات بينها وبين الموظف، إذا لم يكـن مـن الذين يعرفون رقمى. كانت تتهمهم دائماً بالتكاسل، لأنه ليس منطقياً – بالنسبة لها ألا يعرف أحدهم رقم ابنها.

أما أختى التى تقيم بالقرية فقد كان الاتصال بها أصعب لأن رقمها مكون من أربعة أرقام، ومع ذلـك فقـد اكتشـفنا نظاماً يسهل عليها المهمـة. أن تـدير الـرقم الثـانى مـن البداية(٢) ثم الأول(١)وبعدها تدير الرقم قبل الأخير (٨) وما بعده (٩).

هكذا كان سهلاً أن تتصل بمن تريدهم فقط، ومن هـى فى حاجة اليهم.

بعد وفاة أبى، لاحظت أنها قد أخذت تعبر عن رغبتهـا فى إمتلاك الأشياء الجديـدة مـن أدوات المطـبخ. وكنـت أعجب من ذلك، فلم يكن هذا الأمر معروفاً عنها من قبـل. والأهم من ذلك أنها من أجل هذا الجديد كانت تضيع أشـياء مهمة. فقد كنت أتصور – مثلاً- أن طقس الخبيز فى الفـرن

www.alkottob.com

التقليدى(العرصة)متعة بالنسبة لها لا تستطيع (التنازل عنها) وخاصة إذا كانت النسوة يجتمعن معها ويأخذن فى الثرثرة، وأحياناً صنع الخبز الساخن بالسمن والسكر لأطفالهن مع مشاركتهن فى تذوقه.

لكنى فوجئت بأنها تكرر على مسامعى أن فلانه أو فلانه قد اشترت فرناً يعمل بالغاز، وكنت أتجاهل الأمر، حتى جاء يوم وأصرت فيه على أن تحصل على واحد فرضخت للأمر.

ولست أدرى كيف تستطيع مواجهة المشاكل وهى فى هذا السن وقد أصبح تركيزها ضعيفاً.

ففى كثير من الأحيان أشم رائحة الغاز المتسرب من عين البوتاجاز وأتسائل ماذا تفعل فى حالة عدم وجودى. ربما تقوم جاراتها بالواجب.

المشكلة الأخيرة المؤرقة لها الآن. هى أن نظام التليفون سوف يتغير، ويصبح تليفوناً يتصل مباشرة بكل مكان، وهى قلقة لأنها لن تستطيع التعامل معه كما كانت تفعل. فهل ستفشل حقاً؟.

www.alkottob.com

قالت: سهام نجحت. قالت لك؟

قلت لها: أيوة.

قالت: بنت عفريته. اصرت أن تأخذ منى هدية لنجاحها بدل ما تجيب لى الحلاوة. فقلت لها: مامعييش، فتشت سيالتى ولقت اتنين جنيه. خدت واحد وسابت واحد.

فى المساء جاءت سهام، كانت تناوش جدتها فى موضوعات متعددة حتى وصلت إلى موضوع الهدية. وفهمنا أن الجنيه كان ثمن بيع بيضتين لجارنا السعيد، قالت لها: عملت أيه فى البيض الممشش. السعيد رجعه؟

أبدت أمى تجاهلاً وكأنها لم تسمع. انتبهت إلى خطورة الأمر، وإلى خطورة موقفها فضحكت بصوت عالى، وضحك الآخرون حين فهموا. وفهمت هى أنهم عرفوا الموضوع، وأدركوا حيلتها بإدعاء عدم السمع عندما يكون الكلام محرجًا لها، فأخذت تدافع عن نفسها:

فيها أيه يعنى، ما عملتش جريمة بأبيع البيض علشان أدبر نفسى- ازداد ضحكنا.. كانت تدعى أنها تشترى لنا

www.alkottob.com

البيض لنأخذه معنا إلى القاهرة. كانت دائماً ترفض حين أحاول أعطاءها المزيد من المال.

نبهها ضحكنا إلى الجانب الآخر من الموضوع: السعيد الذى كان أبى يغار منه ويحرم عليها محادثته. قالت: أنا قلت لك بعد أبوك ما مات، ماليكشى دعوة بيه، سيبنى على حريتى. كفاية اللى عمله في أبوك.

واصلنا الضحك، وكنت مدركاً خجلها من أن أشياء كانت تخفيها عنى قد ظهرت بالصدفة. أخذ خجلها شكل جرح عصبى إزاء سهام، اتهمتها بنفس التهمتين: أنها تخفى ما يعطيه لها المهندس الذى تعمل معه فى التدريب.

كنت سعيداً بأن وراء شكواها الدائمة من المرض والعجز حياة فيها بعض السعادة. فكرت أنه ربما يكون جميلاً لها أن تتزوج السعيد. ولكنى أدركت أننى سأتهم بالجنون: ثمانينية تتزوج سبعينى

استمر خجلها طوال الليل، وحتى اليوم التالى.

حاولت أن أظهر اللطف معها متعمداً، كانت تستجيب بحذر، كما لو كانت تتوقع أن أنقلب عليها فجأة، وأتهمها بما كان أبى يتهمها به، بعد عشر سنوات من وفاته.

www.alkottob.com

حقنة

فى الحادية عشرة مساء جهـزت الحقنـة. اسـتخدمت المنشار لقص رقبة الأنبوبة. أفرغت السرنجة من الهواء، ثم سحبت السائل بهدوء وحتى النهاية، ثم ضغطته بداخلها حتى يطرد ما قد يكون تسرب من فقاعات الهواء.

أضأت المصباح، كانت نصف نائمة فتيقظـت. قلـت أديك الحقنة! قالت: تانى! استنى أما اتعدل.

قلت لأ خليكى. رفعت الثوب، وجدت تحتـه قميصـاً، أزحته، ثم رفعت السروال وبدا فخذها ضامراً، لكنـه كـان دافئاً.

غرست الأبرة بحذر وضغطت السائل حتى انتهى، ثـم سحبت الإبرة بهدوء ومسحت مكانهـا بالسـروال. أعدتـه وأعدت القميص والثوب والبطانية.

قبل أن أطفئ النور سألتها إن كانت قد تألمـت. قالـت الجسم مات ما عادشى بيحس بحاجة. لكـن صـوتها كـان سعيداً.

www.alkottob.com

احتفال العيد العاشر

لم أكن قد انتبهت إلى أن أمى مغتاظة حتى انقلب الموقد. لم تكن هى التى قلبته، وإنما أنا، ساعتها أدركت أن توترًا ما، أو قلقًا يملكنى. لم أكن قد استعدت يقظتى تمامًا بعد نوم ظهيرة ثقيل، بدأته بمضاجعة لا ترقى إلى درجة الاحتفالية باليوم مع زوجتى. بعدها غصت فى نوم كنت أتمنى ألا يدوم بعد الخامسة، كى أبدأ فى طقوس الاحتفال التى أرادتها هى حين قررت أن نحتفل بعيد زواجنا العاشر بتورته وبشيشة أهدتها إلىّ بهذه المناسبة. كنت سعيدًا بالشيشة، قدرت ما ورائها من رغبة واضحة، فى إعلان هذا العيد على ملأ من يقضون معنا الأمسيات حين نكون بالبلدة، بنات أختى وأولادها وأولاد عمى، فهى ترغب فى الاعتراف بجزء مخبوء من الهوية! أن أجلس بين هؤلاء واسامرهم وألتقى معهم فى عاداتهم اليومية.

استيقظت فى السادسة والنصف، معتل المزاج؛ سعادة قلقة. وبدأت فورًا فى استجلاب الشيشة وإعدادها للعمل. جاء ابن عمى ليواصل العمل، كى يضبط مستوى الماء ويحكم

www.alkottob.com

تركيب الأجزاء المفككة للشيشة. وأخيرًا استوت ووضع فوقها والنار، وبدأنا نتبادل الأنفاس.

فى هذه اللحظة قررت زوجتى أن تبدأ الاحتفال فى حين اعترضت أمى همسًا. ولم أنطق، فأحضرت التورته، وضعت فيها ابنة أختى عشر شمعات صفًا وأضاءتها. ثم أطفأتها زوجتى داعية اياى للمشاركة فى الإطفاء ففعلت. أطفأنا الشمعات فى ضوء الكهرباء الساطع. وبدأ ابن عمى فى تقطيع التورته والتوزيع على الحاضرين، وكانت أمى تعترض على كبر القطع التى يوزعها، وما أن انتهى من التوزيع حتى احتفظت الباقى وهربت به إلى الداخل معلنة أنها ستوزعه رحمة على روح أبى.

www.alkottob.com

طقس العزاء

العزاء فى قريتنا طقس شديد الأهمية. تفوق أهميته طقس العرس. والمشاركة فيه أوجب من المشاركة فى الأفراح. العزاء واجب على كل من تجاوز سن الطفولة من الشباب أو ربما المراهقة. وهذا لا يعنى أنه ليس للأطفال دور فى هذا الطقس،إنهم يقومون بدور ينشغل الكبار عنه أو يستنكفون القيام به. وهو دور سقاية المعزين. يحملون القلة باليد اليمنى وبمهارة يتم تمرينهم عليها، بحيث تميل القلة المستند جسمها على يد حاملها، بفوهتها ناحية الشاربين، ويمرون على الصفوف واحداً واحداً، مع توزيع الصفوف بينهم بنظام لا يختل.

العزاء يتم فى قريتنا فى الدوار إلا إذا أعلن أهل المتوفى أنهم اكتفوا بتشييع الجنازة. وفى هذه الحالة يذهب الأقربون إلى بيت المتوفى وحدهم. أما فى حالة الدوار، وهى عدة دواوير فى القرية لكل عائلة أو مجموعة عائلات واحد. فإن الناس بعد الجنازة يتوافدون ويدخلون الدوار ليسلموا على أهل الميت الذين يقفون فى صدارة الدوار، ثم يجلسون

www.alkottob.com

على المصاطب الأسمنتية أو الدكك الخشبية المصفوفة بتواز وتقاطع فى ساحة الدوار. وإذا كان الميت ثرياً، فإن الكراسى الخشبية أو المغطاة بالقطيفة تحل محل الدكك الخشبية.

ليست الأماكن فى الدوار متساوية ولكنها مراتب ودرجات. هناك أولاً الصدارة التى يقف فيها متلقى العزاء. وهناك المنصة المرتفعة التى يجلس عليها قارئ القرآن. والمكان الأهم وهو المكان المجاور للصدارة تماماً وهذا يحتفظ به عادة لأعيان القرية أو للضيوف الغرباء. وكلما بعدنا عن هذا المكان تضاءلت قيمة الموقع.

ومعظم أهل قريتى يعرفون مواقعهم جيداً فى الدوار بحيث أن الفرد يدخل ويسلم على أهل الميت ويتوجه تلقائياً إلى موقعه الذى يرى أنه يليق به، ولكن يبدو أن هذه المعرفة قد اختلت فى السنوات الأخيرة بحيث اقتضى الأمر وجود شخص أصبح يقوم بمهمة فى غاية الخطورة وهى توجيه الناس إلى المواقع التى ينبغى عليهم أن يحتلوها. يقف هذا الشخص أمام الباب فى مواجهة الصدارة. وتبدأ مهمته بتنبيه متلقى العزاء إلى قدوم شخص أو أشخاص، وتحديد مدى أهميتهم بنطق أسمائهم بدرجات متفاوته الارتفاع من صوته:

www.alkottob.com

اتفضل يا أحمد أو اتفضل يا حاج محمد أو اتفضل يـا دكتور أو اتفضل يا على بيه وفى هذه الاثناء يكون ذهنه قـد عمل فوراً على تحديد مكان كل قادم جديد، حسب خريطة الدوار فى ذهنه وأهمية القادم.

الأولوية دائماً للضيوف، الوجهاء، العمدة ومشايخ البلـد ثم الأثرياء أو ذوى المناصب. فيما مضى كـان للمتعلمـين وخاصة المدرسين موقع هام فى هذه الأولوية، الآن أصـبح لأثرياء النفط هذا الدور وتراجع دور المتعلمين إلا إذا جمعوا مع تعليمهم الثروة.

يجلس المعزون صامتين يستمعون إلى القرآن، ويمـر عليهم كل حين من يشكر سعيهم أو من يقدم لهم فنجان القهوة (وفى العادة يرفضون إلا إذا كان الميت عجوز جداً) أو يقدم لهم السجائر (وعادة لا يتورعون عن تناولها وتدخينها أثنـاء التلاوة) أو أطفال القلل وهم أكثر نشاطاً وتوزيعـاً لسـلعتهم التى لا يستغنى عنها أحد وخاصة فى الصيف.

تتكون ليلة العزاء عادة من ثلاثـة أربـاع، أى ثـلاث فترات من قراءة القرآن، يتناوبها قارئان أو ثلاثة. إذا كانـا

www.alkottob.com

أثنين يختم من بدأ الأول بالثالث، وهذا طبعاً هو القارئ الأهم والأغلى ثمناً.

بعد كل ربع فترة قصيرة تتيح لمن يريد الخروج أن يصطف فى صف طويل يمر أمام أهل الميت ليسلم عليهم ويقول لهم البقية فى حياتكم ويردوا عليه البقاء الله، شكر الله سعيك.

يعلن القارئ نهاية الليلة بعد الربع الثالث بقوله الفاتحة، قاصداً قراءة الفاتحة على روح الميت.

بعدها ينصرف الجميع إلا الأقارب يقوم شخص بدفع حساب المشايخ والكهربائى وعمال القهوة. ويبدأ الكهربائى فى فك أسلاك الكهرباء واللمبات، ويتلكأ الباقون قليلاً، لكنهم – بعد قليل- يأخذون فى تقييم الليلة: ليلة حلوة. المقرئين كانوا ممتازين. الدوار كان مليان على آخره. الناس مش فاضية، موسم والناس تعبانه. الشيخ فلان دا طماع ما يصحش نجيبه تانى. الا فلان ما جاش ليه. ليلة تليق بالمرحوم، كان راجل طيب ما يفوتوش واجب الله يرحمه، الفاتحه له.

www.alkottob.com

مقبرة

آلت مقبرة العائلة إلى السقوط فهرع الشباب بقيادة ابن الأصغر ليجمعوا نقوداً لإعادة بنائها. قالوا أن نصيب كل فرد فى العائلة، وليس كل أسرة كما كان الآباء والأجداد يفعلون، عشرون جنيهاً. تعجبت من المنطق، فى البداية، ولكنى سرعان ما عقلته. طبيعى أن تحسب الأنصبة على الأفراد، لأنهم هم الذين سوف يموتون ويحتلون موقعاً فى المقبرة وليس الأسر.

ومع ذلك فقد دفعت نصيب ثلاثة أفراد، واكتشفت فيما بعد أننى أصررت على منطق أنصبة الأسرة، لأننى لست إلا فرداً. وأنا فرد وحيد يمثل أسرة. كان ينبغى أن يكون فيها آخرون زوجة وأبناء.

الزوجة لن تدفن فى هذه المقابر، والأبناء لم يأتوا أصلاً. بررت فعلى بالقول: ربما لا يستطيع بعض الأفراد أن يؤدوا أنصبتهم.

لم أكن معهم وهم يعيدوا البناء، لكنهم كانوا -أثناء زياراتى- يحكون لى ما فعلوا.. كيف جمعوا العظام بحكمة

www.alkottob.com

وحذر، وكيف حفروا عميقاً فى الأرض، وكيف داروا هذه العظام بعد أن وضعوهافى جوال محكم الإغلاق. وبعد ذلك كيف أقاموا الجدران، وكيف فشل البنَّاء فى إحكام القبو، وكيف لجأوا إلى بناء آخر أكثر خبرة فى بناء أقبية المقابر بالذات، لما لها من طرق خاصة لا يعرفها البناءون

المحدثون. اكتمل البناء دون أن يخبرونى، ونسيت أن أسأل، ولذلك
فوجئت، أثناء مشاركتى فى تشييع جنازة أحد الموتى، به وقد أصبح جميلاً مهيباً، وقفت أقرأ الفاتحة، وأبحث عن قطعة الرخام التى تحمل اسم أبى، ولم أجدها فى مكانها، كانت قبل ذلك فى الصدارة. ووجدت مكانها رخامة عمى الأصغر وتليها رخامة عمى الأوسط، أما رخامة أبى فقد أصبحت فى الركن الأيمن أسفل الجدار.

www.alkottob.com

www.alkottob.com

افتقاد

كنت افتقد امرأة، فوجدت نفسى بين خمس نساء، إحداهن على الأقل تشتهينى، بالإضافة إلى أمى التى تعبدنى.

استيقظت من نوم لم يتم، نوم كاذب، وأعلمتنى أمى أن بنات حمدية قد جئن يسألننى لو كان ممكنًا أن اصطحب جدتهن إلى المقابر بالسيارة.

ولما كنت قد استيقظت دون أن أجد ما أفعله، فقد مررت على حمدية أسألها ماذا كانت تريد.

أعددت السيارة. أقنعت أمى بالمجئ إلى المقابر فهى تغيير على كل حال. فذهبت وجاءت بجارتها التى تنتظر دائما الفرصة لزيارة المقابر، وجاءت حمدية وأمها وحماتها. ازدحمت السيارة إلى درجة أننا لم نستطع اصطحاب مها وسارة اللتين كانتا تبكيان لأنهما لن تستطيعا الذهاب.

فى الطريق تهكمت على السمينات من النساء اللائى يجعلن أيمن السيارة يميل عن أيسرها. فضحكن فرحات. كن فى نزهة وكنت أشغل ذاتى عن مأساتى. وكنت مستمتعًا أننى فى المقابر.

www.alkottob.com

نهايات

خلال الأسابيع الماضية، كانت صديقتى تعيش أيامها الأخيرة فى الحياة، ولأنى كنت مشغولاً بها عملياً ونفسياً، فقد تركت أشياء كثيرة معلقة.

تركت على مكتبى ولاعات أوشك غازها على الانتهاء، لم أغامر بحملها معى إلى الخارج خشية أن ينتهى فى لحظة حرجة، وكذلك بقايا علب سجائر، وأقلاماً أوشك حبرها على النفاذ، لنفس الخشية. تركت نصوصاً لم تكتمل، لأن حالتى لم تكن تسمح بإكمالها كما يروق لى.

أول أمس ماتت صديقتى. وذهبت إلى المستشفى بمجرد علمى بالخبر، من حسن الحظ أنها لم تكن قد تركت غرفتها بعد. رافقتها إلى "الغرفة المبردة" وشاركت أخويها فى وضع جثمانها –الذى أصبح ضئيلاً– فى درج الثلاجة.

بالأمس ذهبت إلى بدروم المستشفى وانتظرت حتى تم الغسل وحملتها فى النعش، إلى سيارة التكريم، وركبت بجوار السائق حتى وصلنا إلى المقبرة، ووقفت عند فوهتها حتى سدوا عليها الباب.

www.alkottob.com

وساهمت فى إحكام إغلاقه، ثم انخرطت فى البكاء.

فى المساء شاركت أهلها فى تلقى العزاء بعض الوقت ولم استطع الاستمرار، فجلست أرقب المعزين.

اليوم استيقظت مرهقاً مغلقاً. ولكنى ظللت أحوم حول مكتبى مدخناً بقايا علب السجائر واحدة وراء الأخرى. ومعها أخذت أنهى الولاعات الموشكة على الانتهاء، ووجدتنى أتناول أحد الأقلام التى أوشك حبرها على النفاذ، وأعدل فى نص كنت قد كتبته ليلة وفاتها، وحين انتهيت لم يكن القلم قد انتهى، تذكرت أن ثمة نصاً آخر عن مقبرة قريتنا كان حياً داخلى منذ أسبوعين، ينتظر الكتابة. فأحضرت ورقاً وكتبته، ولم ينته القلم بعد فتذكرت إضافة كنت قد قررت إلحاقها بنص كنت قد كتبته عن أمى، فأحضرت النص، وكتبت الإضافة التى طالت لتصل إلى ما لم أكن قد فكرت فيه، وفاة جار لنا. انتهى النص، ولم ينته القلم بعد، ولذلك فقد وجدت نفسى مدفوعاً لكتابة هذا النص. كى ينتهى القلم. ولكنه خذلنى ولم ينته بعد.

www.alkottob.com

آخر يوم فى رمضان

فى الطريق إلى المقابر، كنت قد بدأت أسكن وأصفو. خالد يلح فى إمساك يدى. يفتقد أباه دون شك، ويشعر بحنانى إزائه، يمكن حتى أن يعتبرنى بديلاً لأبيه، الذى لا أظن أنه يذكره، فقد مات بعد مولده مباشرة.

أمام المقبرة، جلس بجوارى، وأنا أوزع القطع النقدية على الأطفال الصغار -وبعض الكبار- سأل:

هما مامعهومش فلوس؟

قلت أيوه.

بعد قليل جاءت سلمى حفيدة أختى مع جدتها وأمها، جرت إلى ﷺ واحتضنتنى وجلست فى حجرى. واصلت توزيع النقود. سألت:

هما بيخدوا فلوس ليه؟

فقلت علشان مامعاهمش.

قالت يعنى غلبانين.

قلت نعم.

www.alkottob.com

لاحظت أن خالد قد جلس بجوارى منكمشًا حزينًا، فقد حيويته ونشاطه. عرضت عليه بعض النقود فرفض.

بعد قليل استهوت لعبة توزيع النقود سلمى، فقررت أن تشاركنى فيها، فأخذت ما فى يدى من قطع، وتولت إعطائها للأطفال كانت سعيدة، وظل خالد حزينًا.

فى طريق العودة كانا يتبادلان الامساك بيدى، ولكن خالد ظل حزينًا.

فى المساء جاءنى مرتين، المرة الأولى ليسأل كم سأعطيه فى العيد غدًا.

قلت له زى ما أنت عايز: قال جنيه.

وفى المرة الثانية جاء ومعه محمد ابن عمه المتوفى أيضًا. جلسا يشاهدان معنا التلفزيون، ثم قال: محمد قال تعالى نأخذ العدية من عمك. قلت ماشى.

أعطيت كلا منهما نصفى جنية جديدين، فانشغلا بحصر ما مع كل منهما من مصروف، كان مع محمد جنيهان أحدهما قديم، ومع خالد ثلاثة أحدهم أيضًا قديم. بعد دقائق قال خالد: فك لى الجنية القديم بفلوس جديدة.

www.alkottob.com

قلت: الجنية بنصف، ضحك محمد الأكبر سناً، ورفض خالد.

أخيراً رضخت وأبدلت لهما الجنيهين القديمين بأربعة أنصاف جديدة.

www.alkottob.com

هبة

وقفت فى منتصف الصالة لا تحرك ساكناً. بدا واضحاً أنها فوجئت بوجودى فأرخت رموشها ، ولكن مشيتها كانت مترددة فى أنحاء الصالة. كانت ترتدى فستاناً جميلاً لا أدرى ما الذى شدنى فيه. ثمة صلة ما بينى وبينه. كان فستاناً أحمر غامقاً، تقليدياً ولكنه كان جميلاً.

حاولت أن أشد انتباهها بطرق شتى: لوحت بيدى، ومططت شفتى بالطريقة التى تحبها.. لكن ذلك كان دون جدوى. تركت موقعها وتحولت إلى جدتها وارتمت فى أحضانها.

كانت قد جاءت مع خالتها التى حكت أنها نادت علىّ عدة مرات عندما مرت أمام بيتى، لكنى لم أجبها فذهبت إلى بيتهم غاضبة منى تبكى وتصيح: سيد ما ردش على هبة.

قفزت من مكانى، وذهبت إليها وحملتها بين ذراعىّ واحتضنتها بقوة فلم تتأب وبعد وقت قليل كانت طبيعية تضحك وتلهو. لكن كلما سألتها عن سبب غضبها منى ، كانت تصمت.

www.alkottob.com

سألتها: مين جاب لك الفستان الحلو ده، أرخت جفونها وقالت: سيد بخفوت. قالت أمى فستان عمتها المرحومة هبة. تذكرت أننى كنت قد اشتريته لها من باريس منذ خمسة عشر عاما، لكنها لم تلبسه قط. فقد كان صغيرًا عليها. كانت فى الثالثة، حين اشتريته، ولم أكن أدرى أنه لطفلة فى الثانية من عمرها.

www.alkottob.com

أحمد

منذ مات أبوهما، تعود أحمد وخالد على أن يجلسا إلى جوارى أو على حجرى، أثناء صلاة الجمعة. ومع الوقت انقطع خالد عن الصلاة وواظب أحمد. لكنه لم يعد يأتى إلا.

اليوم، حين دخلت المسجد وجدته فى المقدمة، وقد أسند ظهره إلى الحائط وشبك يديه على ركبتيه المرفوعتين أمامه.وكانت قدماه عاريتان ممدودتان، فأغرتانى أن أضغط عليهما بخفة أثناء مرورى.

جلست فى مكانى وقد أيقنت أنه قد أدركنى، توقعت أن يأتى ولم يحدث حتى انتهت الصلاة.

وعند خروجى وجدته ينتظرنى بالباب. شبك يده الصغيرة بيدى وسار بجوارى صامتاً حتى وصلنا إلى باب بيتنا.

سألنى: أنت هتنام. قلت أيوه. قال بعد لحظة صمت: خسارة. وصمت.

أدركت مقصده. وكان يحب أحد شيئين كل يوم جمعة، أما أن يحصل على نصف جنية ويذهب ليشترى حاجة حلوة.

www.alkottob.com

أو يصعد معى ليرسم بعد أن علمته، وكنت سعيداً بالأمرين وخاصة الثانى. لذلك فقد قررت التراجع عن ردى، وسألته ليه؟

قال: كان نفسى أرسم.

أخذته من يده وصعدنا. أحضرت له الأوراق والأقلام. تركنى أعمل على مكتبى، وجلس يرسم على الكنبة فى صمت وانهماك.

بعد وقت سألته بترسم أيه. قال ورد.. فى كباية. قلت له: كده الورد هيموت. خلى جدوره فى الميه، راسه فوق الوش. قال هى علمتنا كده. قلت هى مين؟ قال الأبله.

تركته يواصل الرسم وعدت إلى عملى. بعد قليل أعاد إلى الأقلام ووضع الأوراق فى مكانها ووقف إلى جوارى يتحسس كتابى الذى أقرأ ويحاول أن يقرأ فساعدته. ثم قال:أنا ماشى فأخرجت نصف الجنية وأعطيته له. فقال مش عاوز. قلت له: خد هات حاجة حلوة.

أخذه ومضى بهدوء. وظللت وقتاً طويلاً قبل أن أستطيع مواصلة عملى.

www.alkottob.com

فى المساء أدركت أنه قد احتال علىّ ليحصل على الشيئين معاً. لم يكن يريد أن يطلب نصف الجنية لأنه حصل على مصروف العيد بالأمس. وكان يعرف أننى أحبه أن يرسم. كنت سعيداً بحيلته وبانخداعى له.

فى الجمعة التالية، لم أجده فى المسجد ولا عند الباب.

فوجئت به يقف جوارى أمام باب المنزل. داعبت شعره ولم ينطق اصطحبته، واتجهنا إلى الدخول، لكن شخصاً نادى علىّ من منزل ابن عمى القريب. فذهبت إليه. ودخلت وجلست، وحين بحثت عن أحمد لم أجده.

مضى بعض الوقت قبل أن ألاحظ أنه مختف خلف منزل مجاور، وأنه يطل علىّ بين وقت وآخر. لم أطل جلستى وقمت فوجدته ينتظرنى.

صعدنا إلى غرفتى، وجلس صامتاً ينتظرنى حتى أنهى مكالمتى التلفونية. بعدهاسألته: عاوز ترسم قال: أيوه.

أخذ الأقلام وأعطيته أوراقاً جديدة، قبل أن يبدأ قال: المرة الجيه حاضرب عاطف.

قلت: ليه.

قال: علشان قال إنك أديته نصف جنيه.

www.alkottob.com

انتبهت: إنت ما جيتشى معايا علشان زعلان من عاطف. قال: لا...لأنى شتمته لما شتمنى، قلت :هو مين.

قال : سيده.

انتهى من الرسم. رسم هذه المرة هرماً. أعاد الأقلام والأوراق ثم وقف إلى جوارى. فحادثته قليلاً ثم قلت: هتروح تجيب الحاجة الحلوة.

قال: هات.

أعطيته نصف الجنيه. وخرج.

الجمعة الثالثة لم أره فى المسجد. وحين وقفنا للصلاة وجدته بجوارى. فكرت فى الخطة الجديدة التى سوف يلجأ إليها للحصول على النصف جنيه.

فبالأمس جاء وحصل على ربع جنيه له، وآخر لأخيه، تبعاً لطلبه.

خمنت أنه ربما يلجأ لنفس طريقة الأمس.. كان قد سألنى إن كنت أحصل على راتب من الجامعة قلت نعم. قال: ما بتقبضشى فى مصر؟ قلت إزاى؟ قال: ما معاكش فلوس كتير. انت معاك فلوس كتير. فقمت وأعطيته ما طلب.

www.alkottob.com

اليوم سار بجوارى تلقائيًا بعد انتهاء الصلاة ونحن نصعد السلم. قال سأرسم. وحين صعدنا أحضرت الأوراق والأقلام وجلس يرسم. كنت أقرأ حين سألنى: إنت بتشترى البلح ولا بتجيبه من على النخلة. قلت: باشتريه. فهمت بداية الخطة، ولكنى لم أدرك ما الذى أدخل البلح فيها. فقلت ربما كان البلح الذى أحضرته لهم من الجزائر.

بعد أن انتهى، حرص على أن يرينى ما رسم، كان قد رسم هرمين ومستطيلاً(سماه مربعًا) ومثلثين ونخلة تحمل عنقودين من البلح.

www.alkottob.com

طفولة

ذات عيد وجدت مع حفيدى كريم مسدسًا صغيرًا لطيفًا، فأعجبنى. كان يشبه المسدس الحقيقى، كما أن صوت طلقاته كان يحدث فرقعه تشبه صوت الطلقات الحقيقية.

كان كريم فى ذلك الوقت يخاف العنف والأصوات الصاخبة. طلبت منه أن يعطينى المسدس على أن أبادله بأخر كنت قد اشتريته ولم يعجبنى، رفض كريم فساهمت أمه معى فى إقناعه بالتخلى عنه، لى.

كان مع المسدس طاقم من الطلقات، لم أستطع استعماله كله أثناء تسليتى أحيانًا بالمسدس، حينما لا يكون معى أحد أو يسمعنى من يمكن أن ينزعج من الصوت.

مع الوقت نسيت المسدس وطلقاته، وفجأة وجدتها فى درج مكتبى، فأخرجت المسدس، وكان محشوًا، وحاولت استخدامه فوجدته مكسورًا.

زارنى الحزن لأن لدى كمية من الطلقات، ولما لم أكن أعرف أين يمكن شراء المسدس، انتظرت العيد التالى.

www.alkottob.com

فى العيد مررت على أصحاب المحلات والأكشاك بعينى دون أن أجرؤ على السؤال، أحيانًا اقتربت أتفحص أنواع المسدسات المعروضة، ولم أجد شبيهًا لمسدسى المكسور.

بقيت الأيام التى سبقت العيد متحسرا ً لأننى لم أصل إلى نتيجة، وفى صباح يوم العيد جازفت باقتحام المسدسات المعروضة وتفحصتها. بدا لى واحد منها وكأنه، رغم عدم شبهه بمسدسى، يصلح لنفس الطلقات. ولأنى كنت قد يئست من الحصول على شبيه بمسدسى أو مثيله، فقد طلبت من البائع أن يبيعنى هذا المسدس.

أعطانى المسدس، الذى كان شكله طفوليا ً، وأعطانى دسته من الطلقات، لاحظت أنها كانت قريبة جدا ً من الطلقات التى لدى.

سألنى، وكان قريبا ً لى، لمن تشتريه قلت، وأنا سعيد،

لكريم. عدت إلى منزلى مسرعا ً، وفضضت الغلاف عن

المسدس، وتأكدت من مطابقة الطلقات القديمة بالجديدة، حشوته بالجديدة، وأطلقت أول طلقة.

www.alkottob.com

www.alkottob.com

كنت سعيدا، وشعرت أننى حققت أمنية غالية: أننى أشارك أطفال العالم الاحتجاج العنيف، الذى يسمح لنا به الكبار، ضدهم.

أطلقت عدة طلقات مع الصغار الذين زارونى، والكبار أيضاً. ثم اكتشفت أنه من السخف أن يواصل من هو فى مثل سنى اللعب هكذا. فقررت فى خيالى أن أوظف الطلقات، ضد من أساءوا إلىّ. وبدأت أفكر فى هؤلاء.. من هم.

لم يظهر فى ذهنى سوى اثنين. أمرأة أوهمتنى بالحب ثم هجرتنى وأحبت آخر، أطلقت عليها الطلقة الأولى، انزعجت من صوتها. لكن قدراً من الراحة غمرنى، وكنت فى حاجة لبعض الوقت لأطلق الطلقة التالية. كنت أعرف إلى من توجه، إلى شخص تعمد تحطيمى، ونجح فى تحقيق ما يريد إلى حد ما، كان يخشانى وعنده حق. كانت طلقته أخف وطأة. ما زال وقت حسابه قادماً. أما هى فليس لدىّ وسيلة للانتقام منها. لن يستطيع أحد أن يجبر أحداً على حبه.

توالت الطلقات، ضد تلميذ بذلت له كل ما أملك علماً ومالاً، وكتب رسالته إلى عدوى. انتهازى. وعلى فرنسيس الذى استولى على الفتاة الفرنسية التى اعجبت بها وكنت

www.alkottob.com

أتمنى قضاء الليلة معها. ثم على الشخصين اللذين ضربانى أثناء محاولتى صف سيارتى فى شارع محمود بسيونى، وإلى الشخص الذى كاد يضربنى لولا حماية مرافقى فى السيارة فى أرض اللواء.

وعادت إلى صورة حبيبتى المفتقدة، لم تعد حبيبتى. فأطلقت عليها طلقة أخرى.

لم أستطع نسيان كل ما فعله الرئيس كلينتون والرؤساء الأمريكيون السابقون عليه، ضدى أنا شخصياً، وكذلك رؤساء وزارات الدولة الاسرائيلية وقيادات منظمة التحرير، ورؤساء الدول العربية العملاء. فأطلقت مجموعة متوالية من الطلقات، لا أدرى عددها، حتى انتهى ما لدى من طلقات، فحاولت النوم.

بعد شهر فسد المسدس. وكنت – فى رحلة إلى الواحات- قد اشتريت له كمية من الطلقات، لزوم الرحلة ولم استنفذها، ذهبت إلى من باع لى المسدس السابق، ومن حسن الحظ وجدت نفس النوع فاشتريت واحداً جديداً.

سألنى البائع هلى لديك طلقات، قلت بخجل ما: نعم.

www.alkottob.com

وش القهوة

كل يوم يبدأ صباحى الحقيقى بوش فنجان القهوة. قبل ذلك، يكون النوم هو المسيطر ما يزال.

نادراً ما أستطيع الكلام قبل أن يبدأ صباحى.

يتحدد صباحى ويومى بقدرتى على المحافظة على وش فنجان القهوة، وهى ليست مسألة هينة؛ بل شديدة التعقيد.

أضع الماء أولاً فى الكنكة. وينبغى ألا يزيد أو ينقص عن كمية محددة تسمح باستيعاب البن والسكر دون أن يفيض الماء عن حافة الكنكة، أو أن ينقص عن حجم الفنجان، فيبدو الفنجان- فيما بعد- أقل كمياً وجمالياً مما يرضيك.

تضع الكنكة بالماء على نار هادئة، أكثر النيران المتاحة هدوءاً فى المكان، ثم تبحث عن الملعقة الصغيرة، وعليك أن تختار تلك التى يسمح حجمها بالدخول فى الكنكة عند التقليب، ثم تأخذ بها ملعقة من السكر تضعها فى الكنكة وأخرى من البن، وتنتظر قليلاً حتى يختفى البن فى الماء، ثم تبدأ فى التقليب الجيد، لأن هذا هو الذى يجعل البن والسكر

www.alkottob.com

يذوبان فى الماء بالقدر الذى لا يترك أثرًا لحبيبات البن على لسانك حين تشرب.

بعد ذلك عليك أن تنتظر المرحلة الفاصلة: الحصول على وش حقيقى. وأنت هنا فى حالة صراع بين نقيضين، أن تعطى النار الفرصة الكافية لإتمام ذوبان البن والسكر فى الماء، وأن تضمن التدخل فى الوقت المناسب قبل أن يفور الوش، لترفع الكنكة، وتصب الوش فى الفنجان، الذى تكون قد أعددته قبل ذلك فى مكان قريب من الكنكة-فى الغالب- فوق عين البوتاجاز القريبة من تلك التى عليها الكنكة.

يحتاج الإمساك بهذه اللحظة الدقيقة إلى مجهود ضخم لمتابعة غليان الماء فى الكنكة، وحركة فقاقيع الهواء التى تحك جزيئات الوش من جوانب حافة الكنكة الدائرية. هذا إذا لم تكن قاعدة الكنكة مضبوطة فى وضعها على وسط عين البوتاجاز. أما إذا كانت مضبوطة فإن ضغط الهواء يأتى فى الوسط ليصعد الوش ككتلة متماسكة إلى أعلى.

إذا نجحت فى الإمساك بهذه اللحظة، وقطفت الثمرة، تكون قد أنجزت المهمة الكبرى، وما يتبقى بعد ذلك سهل. أن تعيد الكنكة إلى النار، حتى يغلى ما بقى من القهوة، وحين

www.alkottob.com

يصعد إلى الحاف، تحمله وتصبه فى الفنجان، الذى يكون قد احتفظ-فى قاعه- بالوش منتظراً البقية، وحين تنزل البقية إلى أسفل، يصعد الوش إلى أعلى.

إذا نجحت فى هذا فمعنى ذلك أنك قد استيقظت فعلاً، وأن حواسك تطاوع ذهنك، وأن ذهنك فى حالة من التنبه والسيطرة، تسمح لك بأن تبدأ يومك.

أما إذا لم تنجح وفار منك الوش، أو لم يتم تمثل البن والسكر فى الماء بالقدر الكافى، فهذا معناه، أنك لك تستيقظ، وفى الغالب لن تستيقظ بقية اليوم. وأنه-أى اليوم- سيكون يوماً رديئاً، كمعظم الأيام.

www.alkottob.com

عمى

كان عمى الحاج محمد أبـو عبـد الله رجـلاً طيبـاً، لطيفاً وحنوناً لكنه كان ثرثاراً لا يكف – إذا جلست معـه- عن الحديث، وفشاراً يمتلئ بالمبالغات التى تؤدى حتماً إلـى

الأكاذيب. كان قبل أن يشيخ جزاراً تزوج مرة واحدة هو صـغير لأنه وحيد أبويه، وقد انجب من زوجته عـدداً كبيـراً مـنالذكور والبنات، أنجب كل منهم أيضاً عدداً كبيراً من الذكور
والبنات.

لكن فيما عداه، كان الموت حليف معظم أبنائه وهم فـى أعمار صغيرة. فقد مات جميع الذكور دون الستين. أما هـو فقد عاش حتى الثمانين بعد أن ماتت زوجتـه عـن سـبعين

عاماً. كانت زوجته ولوداً، ويحكى عنها أنها كانت تلـد فـى الفجر، ويجدها الناس فى الصباح جالسة وراء طشت الكرشة
تبيعها للناس، دون أدنى إحساس بالألم.

www.alkottob.com

www.alkottob.com

بعد موت الزوجة فكر كثيرًا فى الزواج، كان يقول عايزين واحدة عشر وفيها شوية لبن.

واتفق فعلاً مع أمرأة أربعينية من قرية مجاورة على الزواج. وحين جاءت تسأل عنه اصطادتها بناته وكرهوها فيه حتى لا تشاركهن معاشه بعد موته.

كان يجلس على دكة فى فراندة بيته يلعب - وهو العجوز- السيجة مع كل من هب ودب.

وتكون هذه فرصته للثرثرة والفخر بما أنجز هو فى حياته، وما أنجزه أولاده. فرغم أنهم كانوا فى وظائف صغيرة، ناهيك عن أكبرهم الذى عاش بلا مهنة، وحاول أن يرث أباه فى الجزارة بعد أن توقف وفشل مثلما فشل فى كل المهن الأخرى. رغم ذلك كان عمى يرى فيهم عباقرة يحكمون البلد. فهذا فى وزارة الحربية وهذا فى وزارة التعليم، الوزارة كلها فى أيده، والثالث سائق فى شركة للغاز لكنه يسيطر على الشركة كلها ومديرها لا يعصى له أمراً.

ويبدو أن هذه المبالغات لم تكن كلها أكاذيب، لأن ابنه المدرس -مثلاً- كان بالفعل على صلة بالمجموعة الطليعية فى الاتحاد الاشتراكى، وكانت له سلطة على زملائه وربما

www.alkottob.com

على الإدارة فى المركز بسبب لسانه السليط الذى كان يملأ به التقارير التى كان يكتبها للأجهزة العليا.

كان يحبنى وكنت أحبه وأقدر دوافعه، فكنت أنصت له فى البداية مستمتعًا ولكنى كنت أمل بعد وقت لأن حكاياته كانت تتكرر، دون أن ينتبه، ودون أن يكون ماهرًا فى تنويع هذه الحكايات. وكنت أصل إلى الملل التام حين يكرر على مسامعى حكاية السمكة التى رأى رأسها فى الترعة وهو يتوضأ لصلاة العشاء، ثم رأى زيلها وهو يتوضأ لصلاة الفجر.

www.alkottob.com

تحايل

كانت أمى مقترة. ولست أدرى إن كان هذا طبعاً فيها، أم هى ضرورات الحياة، وأن كنت أميل إلى التفسير الأول، لأنها كانت، بما تحوزه نتيجة تقتيرها، تشترى قراريط متتابعة من الأرض. هل كان ذلك ضرورياً؟ أن نموت من الجوع من أجل هذه القراريط؟ ولكن أليست هذه القراريط ضماناً لئلا نموت من الجوع مستقبلاً. يبدو أنها حسبتها هكذا. ألا نشبع اليوم لكى لا نموت من الجوع غداً.

كنا إذن نعيش على ما نأتى به من الحقل وما تنتجه البهيمة والطيور، دون البهيمة أو الطيور نفسها، فقد كانت مصدر انتاج وليست سلعة نستهلكها. ولذلك نادراً ما كنا نرى اللحمة. أياً كان نوعها. واكتفت-فى المواسم-بذبح فرخة أو شراء ٢ كيلو كرشة أو ربع قلب.

هذه ذات يوم جلست وسط الدار وحدى مهموماً وجائعاً. حولى كانت الفراخ والبط تملأ الباحة. رحت أتأملها. كبرت وسوف تبيعها أمى غداً فى السوق. وهذه أيضاً كبرت

www.alkottob.com

ولكنها لن تبيعها فهى تبيض، وبيضها يفقس كتاكيت صغيرة. كان البط أكثر من الفراخ وتتدرج أعماره وأحجامه.

سرحت بذهنى-ربما بسبب الجوع- أننا لم نتناول لحمه منذ فترة طويلة. آخر مرة كانت عاشوراء أى منذ شهر تقريباً كانت فرخة. ولم أتذكر متى آخر مرة تذوقنا فيها لحم البط، وكانت منذ مدة طويلة وكانت بطة وليس دكراً. الدكر أغلى.

فجأة لمحة نملة تسير بجوار قدمى، وفوراً التقت النملة وأمسكت بدكر البط القريب منى ووضعت النملة فى أذنه وانتظرت. أخذ الدكر يدور. وكلما توغلت النملة فى داخل أذنه إزداد دوار الدكر. ناديت على أمى الحقى البطة، جاتلها دوخة. وراقبت أمى الموقف لمدة ربع ساعة، ولما تأكدت ألا فائدة أخذت الدكر وذبحته.

وفى تلك الليلة أكلنا وجبة شهية شوربة وفته وملوخية مع دكر البط. ورغم إحساسى بالذنب فقد استمتعت بالطعام. لدرجة أننى لم أتورع عن تكرار نفس الفعلة كلما تاقت نفسى إلى وجبة لذيذة.

www.alkottob.com

ألــوان

جلست فى شرفة الفندق العريشى المتواضع، أرقب البحر من زاوية ضيقة، وأنتظر هدوء المساء. انتهت ضجة الحفل الذى أقامه الفندق، لكن أصواتاً عالية جائتنى من اليسار، حيث مستشفى مبنى من ستة أدوار، سلمى تخصصياً- فكرت فى معنى "تخصصى" ولم اهتد إلا إلى أنه "خاص" كانت الأصوات آتية من رجلين لأحدهما صوت أعلى من الآخر، وأمرأتين، يقفون بجوار سيارة "هيوندای" سوداء بابها الخلفى مفتوحاً.

استند ذو الصوت العالى إلى باب السيارة الخلفى المفتوح بينما كان الآخر أمامه فى الشارع يلوح بيديه. أما المرأتان فكانتا فى مقدمة السيارة، استندت إحداهما إليها وواجهتها الأخرى فى الشارع.

كان الرجل الذى يستند إلى باب السيارة، يرتدى جلباباً أبيض، فى حين كان الآخر يرتدى قميصاً مشجراً وبنطلوناً. وكانت المرأة التى تستند إلى مقدمة السيارة تلبس "بونيهاً"

www.alkottob.com

وبلوزة بيضاء بأكمام وجونلة، فى حين كانت الأخرى ترتدى حجاباً ملوناً مع قميص واسع لم أر ما يكمله من أسفل. خمنت أن الأخيرة زوجة الأول، وأن الأولى زوجة الثانى. انتظرت طويلاً حتى يكملوا حديثهم وشغلت نفسى بأمور أخرى جرنى إليها تفكيرى، ولكن سيارة عابرة بجوار المتحاورين نبهتنى إلى أنهم قد ينهون حوارهم وينطلقون. وبالفعل، تحرك الرجل والمرأة اللذان كانا فى الشارع تفادياً للسيارة. وبعد خمس دقائق كانوا يسلمون على بعضهم البعض وينطلق كل زوج وحده.

انطلق ذو الجلباب وذات البلوزة البيضاء، فى الهيوندای، وسارعت المحجبة وراء ذى القميص المشجر إلى سيارة بيك أب نصف نقل.

www.alkottob.com

www.alkottob.com

ذرة مشوية

أحب الذرة المقلية. يسمونها فى المدن مشوية. وهى أدق لأنها تشوى ولا تقلى. لا يوضع تحتها زيت أو سمن. ومع ذلك، مازلت أحب قلى الذرة. حين يدعونى صديق أو قريب لنقلى ذرة. أكون سعيداً. وأسعد فعلاً حين أمارس الفعل. حفل جماعى بسيط .

يذهب من يحضر الأكواز من الحقل، ويعد الباقون الأدوات اللازمه للنار: أفرع أشجار فى الغالب، ونادراً قوالح ذرة جافة.

يجلس الجميع حول النار الموقدة بعد جهد. ثمة طرق متعددة لإيقاد النار وشعللتها. والطريقة الأكثر انتشاراً هى أن تضع عود الكبريت المشتعل أسفل أفرع الشجر، ثم تنفخ فيها، ليس بفيك فهو لا يكفى، وإنما بغبيط الحمار يمسك اثنان بطرفيه ويحركانه يميناً ويساراً بقوة فيندفع الهواء إلى النار فتشتعل مصهللة.

توضع الأكواز فى المناطق المشتعلة، ومع الوقت، ومع الوقت تبدو علامات على أن هذا الكوز أو ذاك قد استوى

www.alkottob.com

فيلتقطه متولى النار ويقذفه إلى أحدكم، فى الغالب تكون أنت أول الملتقطين، رغم أنك لست أكثرهم شهوة للطعام. تفتح الكوز بحذر بسبب سخونته، ولأنك لست متأكداً أنه الأفضل. وتبدأ فى التذوق. تحاول - فى البداية- أن تفرط حبات الكوز بأصابعك لكن الكوز فى هذه الحالة -حتى إن كان جيـداً- لا يستجيب لأصابعك بسبب سخونته الشديدة، فتلجأ إلى أسنانك تقضم سطوره من أعلى بحذر وتغوص فى السطور حتى أسفلها لتفتح لديك طريقاً- بعد ذلك- لتفريط الحبات، كى تلتهمها- متلذذاً- حبة فحبة.

www.alkottob.com

ثعبان

كنت وزوجتى بالغرفة نحتسى القهوة ونستريح قليلاً من عناء العمل لحين تواصل مأمول. كان وجهى ناحية الباب المفتوح. رشفة واحدة من الفنجان، وجملة أولى لم تتم، وأطل وجهه صغيراً، ظننت أنه سحلية، قمت إلى الباب أتأكد بعد أن خلعت الشبشب واستعددت لقتلها. عند الباب وجدته. ثعبان متوسط الطول أسود اللون. بمجرد أن أحس بأصواتنا وبحركتى، أنسحب فى الاتجاه الآخر، ولم أعد أعرف أين ذهب. لا شك أنه اختفى وراء الكراكيب فى الردهة. وقفت خائفاً ومحتاراً؛ الكائن الوحيد الذى أخافه. وكانت هى أقل خوفاً منى، المرة الأولى التى ترى فيها ثعباناً خارج حديقة الحيوان. أما أنا فقد رأيت عدة ثعابين فى حياتى، أحدهم كان ينام بجوارى، طوال الليل غالباً.

كان ذلك فى بيتنا هذا قبل أن يهدم ويعاد بناؤة. كان مكوناً من غرفتين فقط، واحدة كبيرة نعيش فيها. وننام صيفاً. على الأرض. على الأرض كنا نفرش الحصيرة قبل أن نشترى سريراً.

www.alkottob.com

كان عمرى أنذاك فوق العشرين، وأذكر أننى كنت فى زيارة إلى البلد. ولم تكن أمى موجودة، كانت غاضبة من أبى عند أخيها فى القاهرة.

حين استيقظت فى الصباح ولممت الحصيرة وجدته تحتها ممداً بينى وبين الحائط. ورغم أن أبى لم يكن موجوداً فقد حملت الحصيرة بعيداً ووقفت ساكناً وهادئاً حتى تلوى ثم تحرك واختفى. يومها لم أكن خائفاً على هذا النحو.

ناديت على أمى. لم تكن موجودة. فنزلت قلقاً لأنى أتركها وحدها معه. فتحت الباب لأبحث عنها، وجدتها قادمة من بعيد، من اليسار. هناك منزل الشيخ الأمير. تذكرت. فى تلك المرة ذهبت إليه وأحضرته ليعزم على الثعبان ويتفل فى حلة ماء نرشها فى الموضع حتى لا يعود ثانية. نعم هو الشيخ الأمير يستطيع أن يمسك به.

قابلتها فى الطريق، وبحثنا عن الشيخ الأمير. قال دعه يسرح ولكن ابنه شجعه على المجئ. كان يبدو متردداً أو غير متحمس. أين سنجده وسط الكراكيب، أخيراً جاء. كانت اكتافها عارية. أغلقت عليها الغرفة وأخذنا نبحث عن الثعبان.

www.alkottob.com

أزحنا الكراكيب واحدة وراء الأخرى. لم يظهر الثعبان، قال الشيخ أن خوفى هيأ لى الصرصار ثعبانًا. ذكرنى بنفس الموقف مع عمى. أكدت أننى رأيته. وأخيرًا لمحته يتحرك. ثم اختفى ثانية. ظللنا نزيح الكراكيب حتى وجدناه وأخذ يتلوى ويتحرك بسرعة. ساهمت فى تدويخه بضربة عصا. نجح ابن الشيخ فى وضع حذائه على الرأس. لم يكن الثعبان نشطًا، تبدو بطنه ممتلئة. استكان وظل الابن يضغط، قال الشيخ لا تقتله. مد الشيخ يده وأمسك به من تحت الرأس مباشرة وخرج.

عند الباب وقف وخلع طاقيته- لم يعزم جهرًا- وأخذ يخلع أسنان الثعبان واحدة وراء الأخرى، قبل أن يلقيه فى النهر: ربنا يسهل له، سيذهب إلى سلطانه. مدد يا رفاعى.

عدت إليها، وقد تخلصنا – إلى حد ما- من خوفنا، فواصلنا احتساء القهوة ونحن نحكى عن الثعبان.

www.alkottob.com

أزواج وأفراد

كان الوحيد يجلس مولياً وجهه للبحر.. يقرأ الصحيفة. وكان الزوج يجلس- هو الآخر- فى مواجهة البحر والزوجة تقرأ الصحيفة وتحتسى البيرة، وكان الولدان يجلسان إلى جانبى المائدة يلعقان الآيس كريم. وكان الزوج الآخر، يجلس بموازاة زوجته كل منهما ينظر إلى البحر. وكذلك كان الزوج الثالث.

وعلى البحر مباشرة كانت أمرأة وحيدة تحتسى القهوة، مولية ظهرها للجميع، وتميل بجذعها أحياناً لترى البحر تحت عينيها مباشرة.

وخلف المرأة كان محبان يثرثران بحماس، بينما تزوغ نظرات الفتاة أحياناً.

وكنت أجلس وحدى وقد اشتريت أوراقاً وأقلاماً، أنظر للبحر وللآخرين، وأريد أن أكتب شيئاً ما.

www.alkottob.com

قصة حب

- ١ -

استندت إلى جدار ظليل أرقب الميكانيكى وهو يعمل بهمة ونشاط ونظام فى إصلاح السيارة. كان شاباً وسيماً. كانت حرارة الصيف حادة، ومع ذلك سقطت قطرات من المطر لدقائق. لا يحدث هذا الا فى أوربا والاسكندرية. على اليمين انفتح فجأة شباك فى الدور الأرضى، وأطل وجه جميل وشهى لامرأة ثلاثينية. بشرة قمحية فاتحة، عينان صافيتان، شعر أسود جبهة عريضة وكذلك كل الوجه، مع استطالة تجعله أليفاً. الشفتان تتحركان انفتاحاً وانفراجاً مع حركة الأسنان التى تلوك اللبانة التى فضحت حشمة الملابس الكاملة. نظرت إلينا ثم إلى الشارع يميناً ويساراً بهدوء وثبات ثم استقرت واقفة تنظر دون قلق، لمدة دقائق ثم أغلقت الشباك واختفت، وإن كان ممكناً أن ألمح حركاتها خلف الزجاج ذهاباً وإياباً.

بعد دقائق أخرى عادت إلى الظهور، هذه المرة كان الميكانيكى يعمل فى وسط الشارع،وجهت نظرتها إليه مباشرة، ولم ينتبه، كان مشغولاً بحديث وهو يعمل، لكن

www.alkottob.com

حواسه التقطت النظرة، وتواصلت عيناه معها لحظة، قبل أن يواصل حديثه وعمله بهدوء وثقة ونظام.

www.alkottob.com

قصة حب

- ٢ -

جلست فى شرفة الفندق المطل على البحر والأزياء والعربات، انتظرها كانت غرفتها-أسفل غرفتى مضاءة- ولكن لا أحد يظهر فى الشرفة.

فى الصباح لمحتها وأمها السمينة وأباها الأصلع، لم أر سوى جانب وجهها، وخيل إلىّ أنها فى غاية الجمال.

فى الظهيرة فوجئت بها فى المطعم. كان ظهرها لى، ولكنى أخذت أدقق فى المرأة الطويلة المواجهة لى ولها فوجدت وجهاً فى غاية الجمال حقاً. وبدا لى أنها لمحت تدقيقى فى المرأة لأنها أخذت تبدو مضطربة تروح وتجئ وتغير من مواقع جلستها على المائدة. وتأكدت أنها جميلة. فى نهاية النهار وبداية المساء جلست فى شرفتى مشتاقاً لأن تنظر إلىّ. وصلتها أشعة عينى، رفعت رأسها إلى أعلى ونظرت فوجدتنى، فاضطربت حركاتها وأخذت تروح وتجئ وتعطى لجسمها حق الحركة الحرة. حركة. حركة من يشعر أن شخصاً معجباً به يراقبه.

www.alkottob.com

تكرر ذلك مرات عديدة حتى حل الظلام فدخلت غرفتها. فى نهاية المساء جلست فى شرفتى، أرقب خروجها إلى شرفتها، انتظرت طويلاً قبل أن تخرج فجأة لتنظر إلى البحرفى لمحة سريعة وتعود إلى غرفتها، دون أن ترفع عينيها إلى أعلى لترانى. كانت فتاة صغيرة وكنت كهلاً.

www.alkottob.com

قصة حب

-٣-

بمجرد دخولها المكان، انتبهت حواسى. كان وجهها قريب الشبه جداً من وجهها. وكذلك تناسق أعضاء جسدها، وطريقة ارتدائها الملابس. تى شيرت أبيض وبنطلون أسود (جينز ستريتش).مع فارق أنها كانت تسير بشكل يبرز مفاتنها، وخاصة نصفها الأسفل، الذى كانت تحركه على نحو

مثير. كانت معها عجوز تبدو أمها، محجبة، وطفلة صغيرة تبدو إبنتها. جلسوا إلى المائدة التى تلى مائدتى من الخلف على اليسار. فكان على أن ألتفت ورائى أراها.

لكنها لم تصعب علىّ المهمة، إذ فجأة وجدتها قد نهضت بعنف وألقت بمبسم الشيشة والموبايل على المائدة وأخذت الطفلة، واختفت لفترة طويلة. شغلتنى فقمت أبحث عنها. كانت بمعنى ما تمثلها لى. وكنت فى شوق إليها منذ عدة أيام، وفى عودتى لمحتها تجلس بين أمهات كثيرات يراقبن أطفالهن الذين يلعبون على المراجيح.

www.alkottob.com

على مائدتى سمعت صوت رنين موبايل مستمر. كان على مائدة الأم، حاولت أن تجيب أو تسكت الصوت، ولم تفلح. تركته يكرر الصوت مرات متعددة، وظلت شاخصة إلى الأمام. إلى الأبد.

قبل مغادرتى بقليل، توجهت إلى حيث يلعب الأطفال بالمراجيح. وجدتها جالسة على أريكة بجوار المراجيح، ولكنها لا تراقب طفلتها، كان وجهها بائساً وحزيناً ومنكساً إلى الأرض، تكاد تبكى، هى ذات الوجهالجميل والجسم الفاتن المثير. تأملتها لحظات من زوايا مختلفة، ثم وقفت عند بوابة ستخرج منها- لابد- وحين رأيتها خارجة قلت لها، وكأنى أكلم نفسى. تليفونك يرن كثيراً، وأمك لا تستطيع الإجابة. مضت ربما دون أن تنتبه أننى أكلمها.

www.alkottob.com

قصة حب

- ٤ -

لم تنتبه إلى أنها تحبك الا حينما أحببت أخرى. وكنت قد حاولت معها، لكنها كانت قد تزوجت، وهى المخلصة لم تكن تستطيع أن تقبل الخيانة. فى مرات لاحقة أبدت طواعية متحفظة، وقالت أنها لا تريد أن تفقدك إذا حدث بينكما ما يكسر الصداقة.

مرات قليلة تلامس الجسدان. الأيدى، الأعين، الخدود، الصدور. فى كل مرة كانت العيون تتألق ويزداد اللعاب، وتبدو النار فى الأفق حين أكتشفت أنك تحب أصابها الاضطراب اقتربت منك إلى حد الاحتضان وتراجعت إلى الخلف خطوات تكاد تكون هجرانًا ومرضت وسألت عنها ولم ترد، ثم عادت لتسعى وتسأل عن الحب الذى ينبغى أن ينتهى، تتابع أخباره وينم صوتها عن عذاب مقيم.

فى البداية- حينما استشرتها كصديقة- أعلنت أن هذا ليس حبا، هو انجذاب،ثم عادت تتسائل عما إذا كان مجرد إنجذاب فقط.

www.alkottob.com

وأنت الذى أدرك المأساة بعد فوات الأوان حاولت أن تؤكد دائما أنه لم يكن حباً وأنت تعرف أنه كان حباً مستحيلاً، وأنك ضائع بين مستحيلين.

www.alkottob.com

آن مارى

- ٥ -

ظللت شهوراً تطاردها عيناك، تبحث عنها بمجرد دخولك إن تأخرت، وتحرص على المجئ قبلها.. ربما أسعدك الحظ فجلست بجانبها أو جلست بجانبك.

كان واضحا أنها ملكة.. رغم التواضع البادى.. ثمة اعتداد وقوة فى ملامح الوجه وحركة الجسم إذ تسير أو تجلس.. وكان فى كل ذلك عذوبة ورقة آسرتان.

رويداً رويداً ومع المجهود الضخم لتحقيق الاقتراب. اقتربت منها وحادثتها وحادثتك كزميل دراسة، ولكن سرعان ما كانت المحادثة تتوقف عند هذه الحدود.

وأنت الآن تجلس وحيداً على المقهى تنتظرها وتعرف أنها لن تجئ.. مثل كل المرات السابقة، تعد بالمجئ ثم لا تجئ. تجلس إذن شاعراً بالغربة وفقدان اليقين، ولا تعرف ماذا تفعل مع هؤلاء البشر. كيف تقترب منهم، وكيف تعيش بينهم.

على عكس يقينك جاءت آن مارى وجلست بجوارك، وكان عليك أن تحقق ما أردت طوال تلك الشهور المضنية.

www.alkottob.com

كانت مطواعة، راغبة فى أن تفعل ما تريد، ولكنك لم تكن راغباً فى فعل شئ. لم تكن ربما قادراً على فعل شئ. وهكذا وجدت نفسك تقود الحديث إلى الانغلاق، لكى تذهب آن مارى وتحقق توقعك أنها لن تأتى.

www.alkottob.com

قصة حب

- ٦ -

الواحدة صباحاً فى شرفة منزلك المطل على الترعة، تحاول تأمل موقعك وما تستطيع فعله فى العالم الذى أصبح يتأبى عليك.

هدوء تام وفجأة طرقعات شبشب حريمى متلهف متسرع، وصوت فتاة: كحة مبحوحة محذرة متوجسة مستمتعة. من أين هى عائدة.؟

www.alkottob.com

قصة حب

- ٧ -

الواحدة صباحاً. جرس تليفون. ترفع السماعة لا أحد يرد، صوت أنثى تبتلع ريقها ويغلق الخط. تضع السماعة؛ وتحاول أن تنام.

www.alkottob.com

قصة حب

-٨-

قالت لا أريد زهرة جديدة. كلما التقينا تهدينى زهـرة.. لا أريدها.

ماذا تريد إذن؟

ربما تريد شخصاً آخر لست قادراً على أن تعرفه لكـى تكونه.

وربما تعرفه وتعرف أنك لن تكون.

وربما لا تريدها لأنها تعرف أنك لن تكونه.

www.alkottob.com

قلم

لا تعرفين – الآن- طبعاً أن قلمك الذى أهديتنى كان قادراً. طوال الوقت على أن يقودنى إلى حلم جميل به أكتب أشيائى الحميمة وله اشتريت أحباراً من كل مكان زرته فى العالم ويمتلك انسيابه القدرة على أن يقول أن ريشة القدماء لم تنته، وأن الجمال فى العالم ما يزال.

يقول قلمك الذى اهديتنى

أنك أحببتنى

وأننى أحببتك.

www.alkottob.com

عرس

كان عرس فى فندق، وكعادة هذه الأفراح- فى هذه الأيام- أن يبدأ الأحتفال بزفاف العروسين من غرفة بالفندق حتى قاعة الاحتفال، وسط هتافات المدعويين وتصفيقاتهم.

وصلنا متأخرين بسبب الحر والزحام- مع انتهاء الزفة، أخذنا مواقعنا بعيداً قدر الإمكان عن مكبرات الصوت، ومع ذلك لم ننج من صوتها العالى، بدأوا بأسماء االله الحسنى، والعروسان على باب القاعة، وفجأة انقلبت الموسيقى إلى موسيقى أوربية صاخبة فتحرك العروسان إلى منصتهما. واستمر العزف الغربى يقود الراقصات والراقصين نحو الساعتين، كنا خلالها لا نطيق أنفسنا من علو الصوت وعدم انسجامه. لولا هذه الفتاة.

كن جمعًا من الفتيات الجميلات ومتوسطات الجمال والقبيحات اللا نجحن فى تغطية قبحهن بما يلبسن وبالزينة. وكن يتبادلن فى أشكال الرقص المختلفة، وكان بينهن بارعات.. لكنها كانت أكثرهن براعة.. ربما لم تكن ترقص أصلاً. ولكنها هى التى شدت انتباهى.

www.alkottob.com

كانت تلبس فستاناً فضياً ينتهى عند قمة ثدييها، معلق على الكتفين بشريطين رقيقين. وحين لحظتها منذ المرة الأولى أدركت أن هذا الزى ليس زينة وإنما ضرورة لإبراز أهم ما فى جسمها. أنها قادرة على تحريك كتفيها مع الموسيقى. وليس فقط وسطها أو ساقيها كما كانت الأخريات

يفعلن. بدت لى حركة الكتف دالة على أنها ترقص من الداخل حقا، وفيما بعد أكدت لى حركات بقية أجزاء الجسم، وكذلك الوجه الهادئ الصبوح، أن الرقص ينبثق من داخلها، وأن تصميم الفستان لم يكن ينفصل أبداً عن هذا الانبثاق الداخلى العميق.

بمجرد انتهاء العشاء، سارعنا إلى التهنئة والذهاب... على الباب سمعت الموسيقى تصدح من جديد... توقعت أن فاتنتى ستواصل رقصها... وتمنيت لو كانت وحدها... وبقيت.

www.alkottob.com

www.alkottob.com

قبلة

كانت القُبلة الأولى أمام مسجد المعز، فوجئت وبد أنها اندهشت من أن يحدث هذا فى هذا المكان.. المقدس.

لم تكن المرة الأولى التى نذهب فيها إلى شارع المعز.. كانت الثالثة. فى المرة الأولى تجولنا فى الشارع حتى قرب النهاية، لكنى كنت مرهقاً ولم استطع الاستمرار فى حين كان شوقها جارفاً للاحتضان ولو فى وسط الشارع. فى المرة الثانية، كان التجوال أمتع.. اليد فى اليد والروح فى الروح. فجأة حين وصلنا إلى نهاية الشارع وتذكرت المكان.. كان يغور فى منطقة مظلمة من الوعى.. أخذت أدقق وأتمعن فى المحلات ودكاكين الخضر والفاكهة. أليست هذه هى المنطقة التى كنا نأتى إليها أنا وأبى، لبيع البصل؟ نعم هى. كيف تنسى إلى هذه الدرجة.؟

قبل ذلك كنت قد تذكرت، وحكيت لها عن مولدى بنبوءة من سيدنا الحسين، حين زار أبى (الذى كان قد فقد الأمل فى الإنجاب) فى المنام، فأخبره أنه سيرزق بمولود وعليه أن يسميه باسمه. حين ولدت كان جدى قد مات وكان لابد من

www.alkottob.com

تخليد اسمه، فلم يسمنى باسم الحسين، لكنه نذر أن يطاهرنى بجواره. وهذا ما أذكره بكل وضوح. أول ألـم عظـيم فـى حياتى.

وحكيت لها عن زيارتنا السنوية لمولد الحسين. وإقامتنا لمدة أسبوع فى شارع أم الغلام على رصيف الشارع الضيق نجلس وننام (فى الخدمة) حتى الليلة الكبيـرة. وعـدتها أن نزور معاً أم الغلام.. لم نفعل لأن القبلة جاءت فـى المـرة الثالثة أمام مسجد المعز. بعدها لم نذهب إلى هناك.

هل كانت القبلة مقدسة أم مسمومة.. قادتك إلى عشـق مجنون أيقظ روحك، أعاد إليك الأمل فى الحيـاة، وعشـت شهوراً من مشاعر الحب العنيف المضطربة المتقلبـة بـين المتعة والخوف والقلق والانتظار.. كان عشقاً بلا أمـل فـى المستقبل، لكنك غامرت بالولوج دون حساب للعواقـب. لـم يكن أمامك غير ذلك. كانت ساحرة وكنت راغباً مسـحوراً. وتذوقت السم المقدس ثم أخذت تتجرعه قطرة قطـرة حتـى تشبع جسمك. ومع ذلك فإنك لم تمت حتى الآن. هل يرعاك من كان ينبغى أن تكون سميه؟ أم أن الأمل الذى استيقظ فى الحياة، أصبح قادراً على حمايتك وتحويل السم إلى بلسم؟

www.alkottob.com

صخرة

فى الطريق إلى رفح، مررنا بمدينة الشيخ زويد، مدينة صغيرة بنيت بجوار ضريح الشيخ الصالح، كانت السوق عامرة فخاض الأتوبيس بين البضائع والبشر حتى وصلنا بصعوبة إلى صخرة " موشى ديان". فى الطريق إليها كان الدليل قد أخبرنا أنها صخرة على شكل فلسطين مقلوبة أتى بها موشى ديان ونصبها فوق هضبة هنا تخليداً لذكرى ابنه الذى استشهد فى حرب ٣٧. قال أيضاً أننا لا نزورها لهذا السبب ، وإنما تخليداً لذكرى شهيدنا الذى قتل السبعة الذين كان بينهم ابن ديان، لكن الدليل لم يستطع تذكر اسم هذا الشهيد.

حين وصلنا قال أنه ممنوع تخريب هذه الصخرة طبقاً لنص اتفاقية كامب ديفيد، للأسف. هكذا قال.

نزلت من الأتوبيس ولم أرغب فى الصعود إلى الصخرة، فقد ألقيت نظرة على جرانيتها الأحمر وشكل فلسطينها، ودخلت كافيتريا ُالنخيل" وطلبت قهوة. كان المقهى لطيفاً، صنعت جدرانه وسقفه من البوص. وموائده من جريد

www.alkottob.com

النخل فيما عدا المائدة التى جلست عليها، كانت من الخشب مطلية بزيت أبيض صلب، أغرانى بأن أخرج القلم الذى كنت قد اشتريته بالأمس، وقد أعجبنى أنه يكتب بخط عربى عريض أسود. أخرجت القلم وكتبت:

تسقط اسرائيل وكامب ديفيد.

* * *

قبل أن نصل إلى رفح مررنا بمستعمرة ياميت التى ظلت آثار دمارها قائمة هى ومزرعة الزهور التى كانت بجوارها منذ عشرين عاماً. درنا حول المستعمرة حتى وصلنا إلى المصنع الوطنى لتعبئة وتغليف الأغذية والمشروبات، اشترينا زيت زيتون ، وليموناً وزيتوناً أسود وأخضر، تذوقناه وكان طعمه لذيذاً. كنت أشعر بالحصر. بجثت عن دورة مياه فلم أجد، انتهزت فرصة ابتعاد الآخرين وتواريت خلف شجرة قصيرة بقيت خضراء وتبولت على حدود المستعمرة، وفعل آخرون مثلى، حين خرجنا لاحظت عند البوابة لافته تشير إلى أن المصنع قد أقامه جهاز الخدمات العامة، وفهمت أنه الجهاز التابع للقوات المسلحة. فيما بعد عرفت أنه ملك لابن أحد كبار المسئولين.

www.alkottob.com

لم تكن رفح كبيرة، شارعها التجارى قصير، اسمه صلاح الدين، إمتداده على الناحية الأخرى من الحدود التى قسمت البلدة نصفين، وكذلك أهلها. ولكنها سمحت لسبعة فلسطينيين من كل جانب بالانتقال إلى الجانب الآخر كل يوم، على أن يعودوا قبل الخامسة مساء.

توقف الأتوبيس عند بوابة صلاح الدين على الحدود. كان العلم المصرى، وعلى الناحية الأخرى العلم الفلسطينى، وعلى يمينه علم دولة اسرائيل. وقفنا عند البوابة ننظر إلى الجانب الآخر بعض الوقت، ثم تجولنا فى الشارع واشترى بعضنا عجوة وسودانى وأعشاباً وفستق ثم عدنا إلى الأتوبيس الذى خرج بنا من المدينة، لكنه فجأة عاد لأن واحداً ممن اشتروا سودانى اكتشف أنه فاسد ويريد إعادته للبائع. إحتج الركاب لكنهم رضخوا.

حين توقف الأتوبيس ونزل الزميل يبحث عن البائع. نزلت لأدخن سيجارة. وفى لحظة تغلبت على ترددى الذى دام ساعة، والتقطت صورة لبوابة صلاح الدين وفوقها علما مصر وفلسطين، دون علم دولة اسرائيل.

www.alkottob.com

الكاميرا المغلقة

قادنى صديقى أمين الديب، الذى مات منذ عشرين عاماً إلى سعدى يوسف:"كل حانات العالم". هذا الصباح عثرت بين أوراقى القديمة المهملة على رسائل أمين وقصائده.

عشرون عاماً وأنا لا أهتدى إليها. بل أن اسمه نفسه ضاع من ذاكرتى، فى المرات التى تذكرت فيها شكله وهيئته ووجهه المنمش. اليوم وجدته، وجدت بعضاً من نفسى. كان شاعراً واعداً، ولكن رسائله كانت أفضل من شعرهالمثقل بالرومانسيه. فى إحدى الرسائل جمله ينصحنى فيها، وكان ذلك منذ واحد وعشرون عاماً ألا أبقى كالكاميرا المغلقة.

لست أذكر حواراً. دار بيننا حول هذا المعنى.

فى رسالة أخرى وجدته يتحدث عن أن الكاميرا المغلقة لا تلتقط شيئاً ولا تبوح بأسرارها، فإذا فتحت، والتقطت صورة، فإن هذه الصورة تبقى فى الذاكرة.

كان يتحدث عن أن ما يلقاه القلب، وهو الأهم، لا يضيع. قادتنى رسائل أمين إلى الشعر. إلى سعدى يوسف، وحواره مع الأخضر بن يوسف. وقادنى حواره إلى الكاميرا

www.alkottob.com

المفتوحة. فتح سعدى يوسف الكاميرا المغلقة، وسجل من ذاكرتها (التى كان واضحاً أنها التقطت كثيراً رغم إغلاقها). ما لم تستطيع إعلانه آنذاك. سجل صراع العالم الخارجى. وصراع الداخل بين الأخضر وسعدى. بين المغلق والمفتوح، بين الوعى واللا وعى، بين الجماعى المفروض والفردى الخاص، الذى تتم به.

وقادنى سعدى إلى السؤال عن تحطيم القفل الذى يغلق الكاميرا. هل هو فقط العالم الخارجى؛ أم أيضاً أقفالنا الداخلية، التى وإن كانت ميراثاً ممتداً من الخارج، قد تكون أكثر خطورة، وأصعب مواجهة؛ وأن تحطيمها قد يكون هو بذاته الطريق الصحيح لمعرفة كيف تحطم أقفال الخارج ! هل هذا مهرب أم بداية؟

www.alkottob.com